المدينة وشرف العشيرة

محمد عبد الرحمن يونس

مهداة إلى
الأستاذ عيسى حسن

المقطع الأول

وهران الجميلة تحتضن صباباتي وأحلامي العذبة التي عشقتها لعشرين سنة خلت... هل يُعقل أن يسلخوا كنزي وأنشاي ويهرّبوها إلى وهران لمجرد أني أكلت أرنباً بريّاً..! يالله لماذا حظي مطليٌّ بالقار والإسفلت وقاذورات العالم، والمدن القبيحة الدكناء...؟.. يا إلهي لا أصدّق أنّ سكان مدينتي قساة كباراميل القمامة، يحتقرون الآس ويبولّون عليه كلّما عربدوا، وفرّخت نساؤهم عبيداً وتجّاراً وسماسرة في ساعات الغفلة والحيض!

قالت أختي رفاء ذات العينين الماسيّتين، والتي تكره البدو والعربان، وبلاد الظلمة، وتعشق المدن المُنارة:

– لماذا لا تصدّق..؟.. كن واقعيّاً مرّة واحدة في حياتك.. دعك من الأحلام والمنى.

أيتها الأحلام الملعونة التي تثقب خلايا دماغي.. ماذا أصنع بك؟.. رفاء بالله عليكِ، إن لم أحلم ماذا أفعل؟ هو الحلم يا رفاء.. المرافئ والمدن البعيدة والبحار، والشوارع والأزقّة، والخمّارات.. هي الأحلام تنغرز نصالاً في مسامات جسدي.. وكيف اقْتلعها.. أعطيني زورقاً وشراعاً لأعبر لك العالم، وأبني لك أجمل الجزر والخلجان وأظل أقرأ لكِ صباح مساء أشعار العرب ومعلّقاتهم وأخبار جواريهم الحسان، واستيلادهم النساء، واسترقاقهم الإماء والسراري.

– ها عدنا إلى الأحلام يا أخي؟

– حتى أنت يا رفاء لا تقدّرين في أخيك شفافية الحلم، ونقاء الأشرعة، ولوثة الغربة الراعفة؟

– ما قصدت ذلك يا أخي.. لكني أطالبك أن تكون واقعيّاً.

– أوه صرعتِني يا عزيزتي بواقعيّتك.. ما ذنبي..؟ المرأة وهربت.. تعرفين كم أحبّ مليكة، وكم وهران الجميلة متشعّبة بدروبها وأزقّتها.. وكم القتل فيها مباح ومجاني.. وأين أجد مليكة؟

– إن كنت رجلاً حقّاً.. اذهب إلى وهران واخطفها.

غمامات سوداء.. غربان.. نسور.. سدّت عليّ الأفق.. وبدأ قلبي دورته النزيفية الملعونة.. عجباً للنساء كيف تفكّر.. عجباً للدورة الدموية المسكونة بالسيَلانات، والأشواك البريّة كيف تدور، وتقتلع السرو والمرافئ والصبابات.. وحتى أكون رجلاً، هل ينبغي أن أتحوّل إلى خاطف نساء؟

القلب الملعون بدأ ينزف.. نزّت العين قذى أحمر.. هوّمت الغربان تلعق بقايا قطرات الدم.

قالت رفاء: أنا آسفة، يبدو أني جرحتك.

رفاء كانت أختي الوحيدة من أمّي التي قتلَتْها العشيرة ذات مساء.. ولأنّ أمي المسكينة رفضت صحراء العشيرة، وشيخها وقطيعه، لفّق لها تهمة الزنا.

تهبّ الذكريات خماسينيّة صمّاء.. تلفحني.. تصطادني، وترمي بي إلى القيعان السحيقة.

ذات مساء اصطادت العشيرة والدتي ورجمتها.. كنت واثقاً أن أمي طاهرة كبيّارات البرتقال وورود اللوتس.. هبّت الصحراء موحشة مرّة.. تدثّرتُ بعباءة أمي.. كان ظمأي وحشاً.. خذيني بين جناحيك أيتها الأمّ المغدورة.. أيتها السروة المكسورة في أزمنة العشائر والبدو والقطعان. ورفرفت أمي، وألقيت رأسي على نهديها المتعبين. سأظلّ نائماً حتى يدور الزمان ألف دورة.. وعندما تُهْدَم الأرض، وتقام المدائن والمرافئ البيضاء.. وتبدأ ظهورات القائم المهدي المنتظر، ورجاله بسيوفهم البرّاقة، والتي ستملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.. وتزرع الآس والبيلسان والنخيل، وتجتثّ الأشواك والصبّاريّات.. وتبني سفناً،

وتشيد منائر ورايات، ويمامات بيضاء، عندها سأستيقظ.. ورغم أني لا أحبّ الحرب ولا الطعان، وأكره العنف والقنص، إلاّ أني سأطلب من المهدي المرتجى، قُدس الأقداس، الرجل الجميل، الذي لا يخاف في الحقّ لومة لائم.. سأطلب منه أن يهبني سيفاً لأهدم به خيام العشيرة.. وأجتثّ رأس شيخها الذي حرمني من الظلّ والبحر وفيء السماء.. وامتلأت عيناي بالدمع.. هذا الدمع الحارّ الذي يعذّبني كثيراً، والذي لم أستطع ضبطه يوماً ما.

تأمّلتْني رفاء.. أختي الوحيدة التي تشبه أمّها بشعرها الأسود الجميل، وتشبه أباها بخضرة عينيه.. واعتذرت:

– يا إلهي.. ما قصدْتُ جرحك.. لكنّي اقسو عليك أحياناً، حتى تصبح رجلاً.

رفاء هي الأم الوحيدة التي بقيت لي بعد مقتل سروتنا الوحيدة في الصحراء، وقررتُ أن أكون جندياً من جنود مالئ الدنيا عدلاً، وسلاماً وطمأنينة، حتى تنمو نبتة السرو الجديدة.

المقطع الثاني

بعد أن قتلوا والدتي هاجرت ورفاء، وتركنا مضارب العشيرة تأكل بعضها بلوثاتها وسلالاتها، وشرفها المقدّس الذي يرقد وادعاً بين كفّيها.. نزلنا المدينة.. المدينة التي كنت أشاهدها أطيافاً ملوّنة ونوارس بيضاء في أحلامي العريضة...

المدينة التي كنت أعتقد جازماً أنّها أكثر شموساً ونجوماً من عشيرتي، واكتشفت فيما بعد أنّ هذه المدينة ما هي إلاّ عشيرة كبيرة بأفخاذها وبطونها.. وأنّ شيوخها أكثر شراسة ووحشية من شيوخ عشيرتي، ورشاشاتها الأمريكية أكثر جمالاً وحداثة من بنادق عشيرتي العثمانية المهترئة. المدينة مهوى الأحلام... والشوارع النظيفة والبحار الدافئة كانت ملعباً فسيحاً لجيادي وصباباتي.. وطموحي لأن أشيّد أسطولاً وأكون ربّاناً عليه، وأجوب البحار والمرافئ وأصطاد المرجان واللؤلؤ.. وأبتني بالسراري والجواري، وأستولدهنّ الصبايا الجميلات كما كان يفعل أجدادي الأشاوس بنو الأزرق، والأرقط، وعبس، وذبيان، ومضر، وخزاعة، وأميّة، والعباس..

المدينة وردة أحلامي العريضة بدت داكنة فاقعة مسمولة العينين.. فجأتني عندما قدمت إليها مقهوراً وحزيناً ومطروداً من عشيرتي. كنت أتساءل مراراً: كيف تكون النساء فيها؟ وكان خيالي المجنّح يرسم لي نساءً شامخات كخولة بنت الأزور والخنساء وسكينة بنت الحسين..

نساء يعشقن الشعر والفنّ، وينسجن طرحات بيضاء تزيّنها الورود والقصائد الشفيفة.. أذهلتني هذه المدينة بنسائها اللواتي بَدَوْنَ بلا أنوف ولا أثْداء. كتل النساء المكوّرة من أثداء وأكفال وأفخاذ، والتي تغنّى بها الشعراء دهوراً طويلة.. ووصفوها بالرمان والعنب والخوخ تارة، وبالملساء وبالرجراجة والثقيلة والكثبان تارة أخرى.. لم أرَ منها شيئاً.. وأدهشني أن هذه الكتل تحوّلت إلى شوارع تُشفّط فيها سيارات المرسيدس والفوكس فايغن، وأن بعض الأثداء صارت سوبر ماركات.. وبعض الأكفال محلات للعطور.. وأخرى مواقف للتكسي، وأخرى سوقاً للمتاجرة بالموادّ المهرّبة والحشيش والويسكي المغشوش.. وأهم الأكفال في المدينة صارت مؤسسات رسميّة، ومسارح واتحادات مافيا وكتّاب وبائعي صحف.

وقالت أختي رفاء: يا للّه كم هي جميلة هذه المدينة..! هنا منفانا الجميل يا أخي.. هنا جنّتك التي وعد اللّه فيها أصفياءه الخُلّص بِحُورٍ عِين، وكواعب أتراب.. وحوريّات لهن أجساد بيضاء شفّافة حيث لا طمث ولا حيض.. ولا ريح.. ولا أنفاس كريهة.. ولا أسنان منخورة.. هنا ستكون ولياً من أولياء الله.

تأمّلت أختي رفاء.. دُهِشتُ.. كانت سيارة مرسيدس تجول مغناجة على ثديها الأيمن.. وسيارة بويك سوداء تتربّع حلمة نهدها الأيسر.. أما شعرها الأسود الجميل فكان ملوناً بالبسطات التي صُفّت فوقها زجاجات العطر الباريسي.. والويسكي المغشوش.. وسجائر (طارق وكازا سبور).. وقلت: رفاء.. أختي.. أيتها الصديقة.. الأمّ الغائبة.. دعينا نسافر إلى أبعد جزيرة.. هنا موتي ومقبرتي.. هنا دورة الحيض الأزلية.. هنا السحالي والأفاعي والعناكب البريّة.. دعينا نرحل يا رفاء. قالت: كن واقعيّاً مرّة واحدة.. كم أنت سوداويّ ونكدي.. قتلتني بجزرك وخلجانك.. تعلّمْ أن تتأقلم.. لماذا بطيء التكيّف أنت؟.. لن أرحل.. هنا أحلامي وشبابي وفارسي الأبيض الجميل.. ان شئت ارحل أنت.

– رفاء.. فكّري قليلاً.

– اسمع.. ليس لك عليّ حق الوصاية.. أنت أخي على عيني ورأسي.. لكن أن تتحكّم بحياتي ومستقبلي.. هذا لن

يكون.. إن كنت تحبّني حقّاً دعني وشأني.

واستصرخْتُ والدتي.. بحقّ الحليب المقدّس وذكريات الطفولة.. أعيديني إلى رَحِمِك.. يكاد البرد يقتلني.. أنا خاوٍ وحزين ومفرّغ كفزاعة.. وقلبي مغروس بالرماح والنصال.. تنهشه الوحوش والخنازير البريّة.. بحق الأسماء الحسنى وربّ العرش.. الأزل الكلّ.. القدّوس.. السلام المهيمن.. ارجعيني إليك.

وبكت والدتي ورفرفت عالياً.. وتأمّلت أختي رفاء.. كان جسدها قد تحوّل إلى شارع كبير تجوب فيه السيارات مغناجة تصدح بأغاني مايكل جاكسون، ومادونا.. وألفيس برسلي.

المقطع الثالث

في المدينة جعت.. تشرّدت.. بكيت دماً.. افترشت الأرصفة والشوارع.. غنّيت وحيداً ونمت وحيداً.. سكرتُ خمراً مغشوشاً.. افترشت أرصفة المترو في عزّ ديسمبر وفيفري.. وأخيراً قرّرت أن أبيع كل هدايا والدتي.. وأدخل الجامعة.

بعت سيوف أجدادي في أسواق البزّ والنساء.. ولمّا انتهت الأموال قرّرت الجامعة أن تفصلني.. فقرّرت أن أبيع دمي للمرضى والمنكوبين. كنت أبيع ((كيس الأطفال)) بألف دينار.. أدفع نصفها كأقساط للجامعة.. والنصف الآخر أشتري به كتباً ومجلات.. كانت تقول عنها أختي رفاء: هذه الكتب السخيفة ستزيد غربتك ووحشتك.. أيّ غبيّ أنت؟.. تبيع دمك لأجل شهادة تافهة لا تساوي فلساً..!.. انظر كم هن جميلات هذه النساء.. تمتّع يا رجل.. هو العمر مرّة واحدة.. هنا جنّة ربّك.. هنا سدرة المنتهى.. لو أنك سمعت نصائحي لأشتريت حانوتاً وبعت فيه عطور النساء وسوتياناتها الملوّنة، ولأصبحت ثريّاً.. واشتريت عشر جوارٍ.. يا لله كم أنت سوداويّ!.. قلبي يتقطّع حزناً عليك.. مرّة واحدة كن عاقلاً.. دواوين شعرك الغبيّة لن تورثك إلاّ الهمّ ووجع القلب..

وكنت حزيناً لأنّ أختي رفاء بدأت تفقد لون عينيها وتقطع أشرعتها.. وتمزّق آخر عباءات والدتي.

مراراً تجندلت روحي في المدينة.. مراراً هوّمت النسور ولعقت بقايا دمائي.. ليالٍ كالحة باردة نمت فيها عارياً جائعاً، فتعلّمت أن آكل الأرانب والقطط والكلاب ولحوم الحمير التي كانت تُباع رخيصة جداً.

تعرّفت على مليكة.. المرأة التي اهتزّ لها قلبي ألف مرّة ومرة.. العقيق والجوهر والمرجان وبقايا نخيل والدتي. استشرت أصدقائي القلائل.. قالوا: دعنا نراها.

في حي سيدي مسعود بوهران القديمة دلفنا بيتاً قصديرياً.. معتماً كان.. لا كهرباء ولا ماء.. أسرة بسيطة: أمّ.. وأب، ومليكة، وأختها الكبرى، وأخوها الأصغر.. تجمّعوا حول موقد وسط الحجرة.. كانوا أشباحاً باهتة.. لم أستطع أن أتبين ملامح أحد، قال الرجل: أهلاً بكم.. فاطمة أوقِدي الفانوس.. أسرعت الأم وأشعلت الفتيلة.. فانبعث ضوء خافت. قال صديقي: لا أرى جيداً. قال الشيخ: اقتربوا.. شتاء العام قارس. كانت جمرات الموقد خافتة.. والقسم الأكبر منها صار رماداً.. إلاّ إنّ الشيخ والد مليكة أصرّ على أنّ هذه الجمرات تشعّ وهجاً.. وأنّ بيته أدفأ بيت في الحي. قالت مليكة: حمداً لله.. ها هو أخيراً سيخطبني.

قالت الأم: يا رب.. ماذا نفعل به إن لم يكن غنيّاً؟ قال الشيخ: إذا كان هو الذي حدثتني عنه مليكة فلن أرضى به زوجاً مهما كلّفني ذلك. قالت الأخت الكبرى: تبّاً للرجال كم هم تيوس ودببة.. ها هي مليكة ستتزوج.. وها عنوستي ستطول.. ألستُ جميلة؟ وكانت مليكة قد حدّثت والدها بأدقّ التفاصيل في حياتي.. عن موت والدتي.. وعن بيعي لدمي.. وأكلي للحوم الأرانب.. وجوعي وفقري وتشرّدي.

همست لأحد أصدقائي: ما رأيك بها.

قال: لم أر شيئاً.. هذا الفانوس اللّعين لا ينير أكثر من بلّورته.. دعني أفكّر قليلاً.. وأخرج علبة سجائره.. وقدّم للشيخ واحدة، ثم وزّع علينا.

امتلأت الغرفة بوهج أضاء ملامح الجميع.. كان لهيب ولاّعة الغاز يتطاول فجأة، فيكشف القسمات وملامح البيت بأثاثه البسيط.. بدت مليكة زمرّدة متألقة.. كان الوالد عابساً صامتاً فبدا كتمثال.. وبدت الأخت الكبرى قطة تتأهّب لتنقضّ على فريستها.. فتنمّرت وغرزت مخالبها في وجوهنا. أشعل صديقي السجائر، وعمداً كان يشعلها ببطء وتروٍّ، ويتأمل وجه مليكة.. وفهمت أنه أدار فتحة الولاّعة إلى الأخير ليندفع الغاز بأقصى قوّته.. فيزداد النور ويكشف ملامح الأسرة ووجه مليكة.. وما إن انتهى غاز الولاّعة حتى عاد فضاء المنزلِ خافتاً بفانوسه المنتحب. كم بدت اللعبة

جميلة ومسلّية فأخذت ولاّعتي.. وأشعلتها.. ثم فتحت فوهة الغاز إلى آخرها.. وكنت واثقاً أن أصدقائي سيدقّقون جيداً في وجه مليكة، وبرّرت سلوكي الأحمق هذا لوالد مليكة الذي بدا عدوانيّاً وقلت: يا عمي اسمح لي أن نتكلّم على النور حتى يرى كلانا الآخر.

وخزني صديقي وهمس: دعنا نخرج دقيقة واحدة. وخرجنا. قال: أيّ غبيّ أنت؟.. كم ذوقك فاسد!

إنها شعثاء وداكنة.. المدينة مليئة بالجميلات والحوريّات، ولماذا تتزوج هذه القميئة؟.. أليس عيباً على شاب مثلك يحمل شهادة الليسانس ويتزوج هذه المرأة الأميّة.. دعني سأخطب لك أجمل النساء.. إنّ أكثر السلع رواجاً في هذه المدينة هنّ النساء.. لا تستعجل.. الزواج يحتاج إلى مزيد من العقل.. وبدت مليكة في تلك الأمسية أجمل نساء المعمورة.. صحيح أنها كانت داكنة، ومنفوشة الشعر، وذات ثياب باهتة مهترئة.. لكني كنت أعشق فيروز عيني هذه المرأة.. وابتسامتها الدافئة.. قد تكون عبدة وقميئة في عيني صديقي.. لكني استنطقت نفسي جيداً.. كانت تقول لي: مليكة هي الجوهرة والسرّ والمفتاح.. هي الشراع الذي يحملك إلى الجزر الآمنة.. والأزمنة المضيئة التي لمّا تأت بعد. وقلت: لن أتزوّج غيرها. وقال: إلى جحيم ربي كل فاسدي الذوق، وعاشقي الدمامة.. لم أر في حياتي ذوقاً أحطّ من ذوقك.. إن كنت مصمّماً.. دعنا ننته بسرعة من هذه القاذورات.. وبدت مليكة درّة ثمينة مرميّة في قاذورات المدينة ودركها الأسفل.

وقلت: كل التصميم.

وقال متأفّفاً: لا هنيئاً لك موتك في هذا القبر العفن. وبازدراء تقدّم إلى الرجل قائلاً: يا عمّي.. أتيناك طالبين القرب منك.. نأمل أن تقبل هذا الشاب خطيباً لابنتك. وسأل عابساً: من هذا يا مليكة؟

– هو الذي حدّثتك عنه سابقاً يا أبي.

– معاذ الله.. أستغفر الله.. أنت تأكل لحم الأرانب..!

– وما العيب في ذلك؟

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لحم الأرانب كلحم الكلاب والخنازير.. وأكلها في النار.. اذبحها من الوريد ولا تمسّ شعرة منها.

– هات لي نصّاً قرآنيّاً أو حديثاً شريفاً واحداً يحرّم لحم الأرانب.

– أنا لا أعرف بالنصوص، ولا أحفظ القرآن.. ما أعرفه أنّ لحم الأرانب أوسخ من لحم الخنزير.. هكذا كان يقول جدي وأبي.. وملعون من ينسى أصله وفصله.

– يا عمي نحن أولاد الحاضر.. وهو شاب متعلّم ويحمل شهادة جامعية.. والآلاف غيره في هذه المدينة يأكلون لحم الأرانب.

– لو حمل شهادات العالم كلّها لن يمسّ شعرة منها.. أعوذ بالله من هذا الجيل الفاسد.. تفو.. لم يبق لي إلاّ أن أزوّج ابنتي من فاسد يرتكب المنكرات!

– يرحم والديك بركة.. ما تصدعنيش(*).. اذهب وابحث عن نصيبك عند غيرنا.. لن أرضى بك.

كم أحسست أنّ فضاء المنزل خانق.. تقدّمت الجدران.. وضغطت مفاصلي.. هوى السقف فجأة فتدحرج رأسي.. المدينة الحلم كم بدت مخرومة.. زاد وجيب قلبي.. هي الدورة الحيضية الخبيثة التي تلفّ المدينة في فوطها.. وتدور بها ثم تقذفها إلى القاع.

ولم أصدّق ما سمعت.. أنا الشاب المتفوّق في جامعتي، وأول طالب على دفعتي.. الشاب الذي قرأ نصف أشعار العرب وأخبار قتالهم ولصوصهم، وسِيَرهم بقوّاداتها وقهرماناتها وزنزاناتها ومغتصبيها ومدنها الذليلة المنكوبة المستباحة، ويرفضني رجل لا يعرف يقرأ كلمة واحدة..! وتذكّرت أختي رفاء: كن واقعيّاً مرّة واحدة.. لا قيمة للشهادات.. هنا العشيرة هي القانون والسيد.

لو أنّ الرجل رفضني لفقري وتشرّدي وانتماء عشيرتي الطائفي في مدينة لا تتحدّث إلاّ بالطائفية والعشائرية والفضائح، لما أحزنني ذلك.. لكن أن يرفضني لأني آكل لحم الأرانب..؟ كم بدت الحالة مهينة ومقزّزة في آن.

وتأمّلت مليكة: مليكة ألاّ تحبينني؟.. بحق الخبز والملح والقبلات السريعة في الأزقّة المظلمة.. وفضاءات الأرض الوسخة قولي شيئاً لأبيك.. وصمتت.. وقالت.. وأخفضت رأسها. ولا أدري كيف انفجرتُ: اسمع أيها الشيخ.. شئت أم أبَيْتَ سأتزوج مليكة.. بالحلال أو الحرام لا يهمّني ذلك.. فأنا مطرود ومنبوذ.. ولا أريد جنّتك.. سأتزوّج مليكة رغماً عنك.

وزمجر: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم.. يا ربي أجرنا

من هؤلاء الملحدين والفجَرة.. اخرجوا وإلاّ كسرت رؤوسكم.. زنادقة.. إباحيّون.

وخرجنا.. وكان صديقي متلألئاً.. وكنت مسكوناً بإحباط ووحشة.. وعلى الباب وأنا أشيّع المنزل قلت: اذهب أنت وشيطانك وقيمك إلى الجحيم.. سأتزوجها رغماً عنك. وقال الشيخ: قل لوالدك أن يجهّز لك كفناً، فملك الموت قريب منك.

وذات مساء هرّبوا مليكة إلى وهران بعد أن تأكّد الشيخ أني عازم على خطفها. وقال لزوجته: هذا ولد أهوج.. سيسبّب لي الفضائح.. اني أفضّل الموت قبل أن تتزوج هذه الهبلاء من رجل يأكل لحم الأرانب.. خذي هذه الألف دينار واهربي بابنتك إلى وهران حيث أولاد عمّها.. وهربت مليكة وكان مساءً حزيناً.. وأتى الشتاء زمهريراً.. وتساقط المطر.. وحفر أخاديد ووديااناً في قلبي الصغير.

المقطع الرابع

هي ذي لوثة الوحشة تعربد في سماء المدينة بعد أن رحلت مليكة.. ضاق صدري.. ضاقت الشوارع.. زاد تشفيط السيارات... مساءات كئيبة كنت فيها أمشي غريباً.. أعاين وجوه المارّة غريباً.. أعيش غريباً.. وأموت غريباً هنا في هذا المنفى حيث الدورة الحيضية أبداً.. واستصرختُ روحَ أمي: أيّتها الحبيبة النجمة القتيلة.. لماذا تتركيني أنا الغريب المنفيّ المطرود من أزمنة العشيرة والقبيلة والأمّة.. ولا وطن لي ولا مأوى ولا حبيبة؟ هلاّ أعدتني إلى رحمك؟ وقالت النجمة: زمن الدورات الحيضية سيظل يدور.. هو المطلق.. هو الأزل. تشجّع.. إني أصلّي لأجلك.. كن باراً بأختك..هي الوحيدة التائهة.

قال صديقي: احمد الله.. لقد خلّصكَ من هذه القميئة الشعثاء.. المدينة مليئة بكافة صنوف النساء.. سأخطب لك أجمل الصبايا.

وحدها مليكة الشعثاء كانت الصفصافة الخضراء، وباقي النساء كنّ طحالب، وشوارع وسخة، تشفّط فيها السيارات الأمريكية الجديدة.

وقال العقل: إنْسَ.. لتكن أهون المصائب.

وقال القلب: كيف أنسى؟

وهجمت المصائب والخيبات شاهرة نصالها، وسيوفها اللامعة.. الفقر.. الجوع.. الغربة.. الأمّ النجمة القتيلة.. السجون الرطبة.. السجّانون.. بلاد الله الضيّقة التي جعت فيها ومتّ مئات المرّات.. جلسات التحقيق الوحشيّة.. اللسعات الكهربائية.. أضلاعي العشرة المكسورة.. الأكواخ القصديرية التي افترشت صفيحها طيلة سنوات الدراسة.. تعيش غريباً وتموت غريباً أيّها المدمّى جراحاً ومرايا راعفة.. تمتطي جناحَي يمامة وتهاجر.. من كل فجّ عميق يأتيك الرصاص.. تتساقط دموعك.. يدٌ واحدة ما امتدّت لتمسح جراحك.. الخواء.. الغربة.. وحاصرني التقيّؤ.. وتساقط دمعي.. هو الملعون الذي لا توقفه قطارات العالم كلّها.

تحسّست جيوبي.. شبه فارغة كالعادة.. معدتي المقروحة بدأت تهتاج.. علبة الدواء انتهت منذ الصباح.. كم بدا لحم الأرانب شهيّاً ولذيذاً.

هي الجامعة التي استهلكتني.. هي الكتب التي ابتزّت قطرات دمي.. الكتب التي تقول عنها أختي رفاء إنها أكثر القنابل الجرثومية فتكاً وتدميراً للروح والجسد.. المعدة المقروحة تصرخ.. عيناي الزائغتان تثقبان الأطعمة والفلافل.. والأرانب والكلاب، وأثْداء النساء التي تسرح وتمرح فيها قطعان البقر الوحشي، ودواليب السيارات السوداء الجميلة.

بعد أن رحلت مليكة إلى وهران بعت نصف لتر من دمي.. وبدأت أشرب بثمنه.. وقال صديقي: الخمرة هي الوحيدة القادرة على طرد وسخ الصحراء والوحشة.. اسكر لتنسى.. وشربت خمرة مغشوشة.. وما سكرت وما نسيت مليكة. وقالت رفاء: إن كنت رجلاً إنس.. وما نسيت.

وقالت: يا بنيّ الحب أكذوبة سخيفة.. فكّر بجسدك لا بروحك.. لا أحد يستحقّ أن تذرف عليه دمعة واحدة.. اقتدِ بي.. ألست أختك؟.. لا يوجد رجل واحد في هذه المدينة يحرّك أعماقي وروحي.. لقد دفنتها إلى الأبد.. أنا لا أفكّر إلاّ بجسدي.. رجال تيوس ودببة.. ولن أسمح لرجل بامتلاكي.. جسدي وحرّة به.

وما نسيت.

وقالت: انّ هذه اللوثة لن تزول من دمك إلاّ بهذه المهبولة مليكة.. إن كنت رجلاً اذهب واخطفها. وأزهرت في أعماقي ورود الإخاء النبيلة، وصوت أمي الحنون.. ووددت أن ألقي برأسي إلى صدر أختي رفاء، وأصارحها بفقري وجوعي.. وأرجوها إقراضي ألفي دينار. لكن خلايا دمي صرخت: أن

لا.. رفاء ماتت منذ دهور بعيدة.. وقرّرت أن أبيع نصف لتر من دمي لأي مريض يطلبه... وأذهب إلى وهران.

المقطع الأخير

بعد أسبوع في وهران استطعت أن أصل إلى مليكة.. لا تزال نجمة ساطعة.. هي مليكة وليقل كل الناس عنها إنها شعثاء وقميئة وبشعة. وقالت الروح: أُدخِلُكِ في مساماتي، وأهرب بك يا مليكة.. لن أبيع دمائي لأحد بعد الآن.. سأهبك بقايا دمائي. وقالت خلايا الدم: كم أنا سعيدة أنا وخضراء. وقالت مليكة: لا أصدّق.. هل تحبّني إلى هذه الدرجة؟

– وحق الأولياء والقدّيسين.. وشعراء العرب ولصوصهم.. ونسائهم الجميلات المكتنزات المعربدات.. وجيادهم التي وصلت إلى بواتيه وبرشلونة.. وشرف عسكرهم وقادتهم الذين باعوا غرناطة وإشبيلية وسبتة ومليلة، ما سلاك القلب يا مليكة.

– إن كان صحيحاً ما تقوله.. هيّا نهرب.

***

السيارة التي تقلّنا إلى الجزائر العاصمة تنهب الأرض.. بدت وهران قبّة بيضاء ملألأة بآلاف النجوم والأقمار.. ومن نافذة السيارة بدت الجبال والسهوب غابات خضراء.. كانت تسرح فيها طيور بط وبجع ويمامات بنّيّة.. وغزلان اليفة، وأرانب مشعّة مسوّرة بالياقوت واللؤلؤ.. وقفز قلبي يمرح داخل هذه الغابات مكلّلاً بالتيجان والمدن البيضاء، والجزر الآمنة.

فجأة أزّ الرصاص.. وارتجفت مليكة:

– يا مصيبتي.. هي الفضيحة اشتعلت.. إنهم يطاردوننا.

كانت سيارة صفراء تطاردنا.. أوه.. يا للكلاب.. تبّاً للبدو والعربان.. والعشائر والقبائل والبرابرة.. قتلوا والدتي النجمة.. وها هم سيقتلونني.

– مليكة.. ما هذا.. من هؤلاء..؟.. إني لا أفهم شيئاً.

– إنّهم أولاد عمّي الذي يعيشون في وهران.. لقد شعروا بنا.. وها هم سيصونون دم القبيلة وشرفها.

يا للّه.. منذ أن وُلد العربان والبدو والقبائل.. قرّرت الآلهة أن تخلق جرثومة سرطانيّة.. سرعان ما احتضنها هؤلاء العربان، وغذّوها، حتى نمت واستطالت جميلة. فخافوا عليها، وما وجدوا مكاناً آمناً لحمايتها، إلاّ بين أفخاذ نسائهم، وأكفالهن، وأعضائهن الحميمية. وقالت الجرثومة: ها أنا كبرت.. ماذا ستسمّونني؟.. وتهلّلت الأكفال، ووجوه العربان، وقالوا: نسيمك الشرف العربي المقدّس المصون.. ندافع عنك بأرواحنا وأنفسنا.. ونذبح كل من يفكّر فيك من القبائل والعشائر الأخرى.. نحن لك وأنت لنا.. خيراً وشرّاً ودماً ومنيّاً وطمثاً ودورة حيضيّة. وتهلّلت الجرثومة: إذاً أنا السيد المطاع.

وقالت العربان:

«لا يسلم الشرفَ الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبة الدم».

وتعالى صوت الرصاص.. الرصاصة الأولى في الخاصرة – الثانيّة في الكتف.. تدفّق الدم ثلجاً.

– آخ.. مليكة.. قُتِلت.

وصرخ السائق: أعوذ بالله منكما ومن هذا اليوم الأسود.. أنتما مشؤومان.. من قال لكما أن تنتميا إلى الأحزاب السياسية؟

في المشفى المركزي – «مصطفى باشا» – تكوّمت مسربلاً بجروحي.. وبين الغيبوبة والحمّى كنت أكتشف بصعوبة صور الأشخاص الذين تجمّعوا حولي.. صديقي يلعن الزمن والنساء: قتلتْه هذه القميئة الشعثاء.

أختي رفاء تولول: تفو.. لعنة الله على الحبّ والنساء والرجال والأرانب والعربان.

صور تمرّ.. خيالات.. أطياف سوداء.. نسور جارحة تلعق دمائي.. أرانب بريّة تفرّ مذعورة.. والصيّادون يطلقون عليها. مليكة الشعثاء بعينيها الماسيّتين تركب قارباً أبيض.. تلوّح لي.. أصوات الرصاص.. طيور البجع تنشد مواويل حزينة.. جرثومة القداسة العربية تخرج من مكمنها الحصين وترقص مغناجة.. تهتزّ الأكفال والأرداف.. تشعّ وجوه العربان ألِقة..

«لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبة الدم».

صوت الشيخ والد مليكة يزغرد: هل أعددتم كفناً لهذا الفاسد أكل لحوم الأرانب والقطط؟

الدورة الحيضية أبداً تدور.. تدور – تدور.

الجزائر

(*) من الدارجة الجزائرية: يكفي.. لا تزعجني كثيراً.